من أدب الرحلات

أيام في أرض الرافدين

للأستاذ عبد الله بن حمد الحقيل

يحرص المرء دائماً على زيارة بلدان العالم العربي والإسلامي وخاصة عندما يكون البلد ذا تاريخ وأمجاد وحافلاً بالمعالم والآثار وقديماً قالوا : « ليس راء كمن سمع » وشاء الله أن تتحقق تلك الأمنية .. بزيارة العراق الشقيق ، فقد تلقيت دعوة من مدير مركز الدراسات بجامعة البصرة بحضور الدورة الثانية عشرة لمراكز الدراسات والوثائق والتي تستضيفها جامعة البصرة.. وقد تقرر أن يكون الاجتماع في يوم ١٤١٠/٥/٢٠ هـ ..

وغادرت الرياض يوم الإثنين الموافق ١٤١٠/٥/١٨ هـ متوجهاً الى الكويت وكان الوصول إليها الساعة السابعة مساء .. ولم تكن هذه الزيارة الأولى للكويت .. فقد سبق أن زرتها منذ عشر سنوات وبعد ان مضيت ليلة في

ربوعها توجهت صوب مدينة البصرة وسط طريق معبد جميل ثم توقفنا عند الحدود الكويتية العراقية برهة قصيرة من الوقت واستأنفنا السير الى مدينة المجد والتاريخ والتراث والبطولات .. كان الجو دافئًا والشمس مشرقة والسماء صافية خالية من الغيوم ومضيت نحو « فندق شيراتون البصرة » حيث كان مقررا ان نسكن فيه ووجدنا في استقبالنا مجموعة من الأخوة من مركز الدراسات والجامعة ..

وفي العشيّ ذهبنا الى اسواق المدينة ورؤية شط العرب الذي وصفة الشعراء والكتاب والرحالون وبعض معالم البصرة وآثارها .. ولكم تذكرت وأنا أسير في طرقاتها وبين ميادينها وأسواقها صمود هذه المدينة وبطولاتها قديما وحديثا وكذلك أمجادها العلمية وإسهامات علمائها ومفكريها وشعرائها خلال حقب التاريخ كالقرن الأول الهجري أو في العهد الأموي أو في القرن الثالث الهجري أو غير ذلك ..

فلقد كانت مدينة مشهورة في عالم الفكر والنحو والشعر والتاريخ والفقه وغير ذلك من العلوم ... ورددت قائلا :

يـا بصرة المجد والتـاريخ والسير   يا موطن العلم والآثار والأدب
كم انجبت أرضها من عـالم فطـن   يطيب بالذكـر والتـاريخ والأدب

وهي قصيدة طويلة أوحت بها المناسبة

وقد كان للبصريين من نحاة وأدباء ومحدثين إسهامات جيدة في مجالات اللغة والنحو والأدب وعلوم البلاغة والتفسير وغيرها .. فقد انجبت مدينة البصرة العديد من العلماء الأفذاذ كالجاحظ وأبي عمرو بن العلاء والخليل بن أحمد الفراهيدي والأصمعي والمدائني والكندي وابن الهيثم .. كما سكنها الصحابي الجليل أنس بن مالك ومحمد بن سيرين والحسن البصري وغيرهم من العلماء والأجلاء ..

لقد كنت أتذكر تاريخ أولئك العلماء الأعلام وأنا أطوف بميادين البصرة ..

فقد تميزت البصرة على غيرها بتعدد المراكز الفكرية والعلمية إذ ذاك .. إن هذه المدينة تمثل تاريخًا عريقًا ومجداً إسلامياً رفيعًا ..

وبعد جولة عدنا الى الفندق وبعد تناول طعام العشاء كان لقاء تعارف بين أعضاء الوفود المشاركة في الدورة ..

وفي صباح الأربعاء توجهنا نحو جامعة البصرة .. وقد غصت قاعة الاحتفالات بالمدعوين من رجال العلم والمعرفة وأساتذة الجامعة ومحافظ البصرة وقد افتتح الدورة مدير الجامعة الذي رحب بهذا اللقاء لمراكز الدراسات والوثائق في مدينة البصرة ، مدينة التاريخ والتضحية والفداء ثم أعقبه الدكتور قحطان الناصري مدير مركز دراسات الخليج والجزيرة العربية .. وألقى كلمة ترحيبية ثم القى معالي الشيخ عبد الله بن خالد الخليفة الأمين العام لمراكز الدراسات والوثائق ووزير العدل والشؤون الإسلامية في البحرين كلمة بليغة حيا فيها مدينة البصرة وصمودها وكفاحها وتمنى أن يكتب الله لأمة الإسلام النصر والتأييد وذكر أن البصرة كانت منارة تشع منها أنوار العلم والعرفان وتمنى للمؤتمرين النجاح والتوفيق ...

ثم بدأت أعمال الدورة واستمرت يومين .. وخلال مقامنا في البصرة وجهت دعوات وذهبنا لحضورها منها دعوة مدير الجامعة في فندق الخليج .. حيث الفينا جمعًا حافلاً من رجال العلم والأدب وكذلك حفل محافظ البصرة .. ثم توجهنا في اليوم الأخير الى مدينة «الفاو» وهي على مقربة من البصرة وبلغناها بعد سير بالحافلات لمدة ساعة فقصدنا الى مقر القائمقام الذي رحب بالوفود وشرح لنا بطولات ابنائها وما بذله العراقيون من تضحيات في سبيل تحريرها وقد اطلق عليها لقب « مدينة الفداء وبوابة النصر العظيم » فقد كان لتحريرها قصة كما كان لاحتلالها قصة .

وقد تحررت في ليلة مباركة من شهر رمضان المبارك وكانت حدثًا تاريخيًا عملاقًا يدوي صداه في مختلف الأنحاء ،، ثم قمنا بجولة في مختلف أرجائها وميادينها وشاهدنا الحركة والنشاط والعمران في مختلف جوانبها وبدأ أبناؤها يعودون إليها وغدونا نجول في أنحائها في صحبة محافظها .. ثم سرنا نحو

الجامع الكبير لأداء صلاة الظهر وكان جامعاً فخماً بني بعد نهاية الحرب .. ولقد سألت الاخوة المرافقين لنا من اساتذة الجامعة عن أصل كلمة الفاو وسبب تسميتها فقيل لي إن ذلك يعود إلى أن الفاو اسم لسفينة شراعية غرقت في نهر المهلبان نسبة إلى المهلب بن أبي صفرة وكانت تابعة للديلم فسميت المدينة باسمها وروى أحد الأخوة أن الفاو كانت تلفظ « فو » بالفاء المفتوحة والواو المُضَعَّفة ثم بدأت بالتخفيف حتى أصبحت تلفظ الفاو وأردف أحدهم بأن الفاو كانت من أرقي مناطق العالم المعروفة لكثرة وجود مادة الحناء ..

ولقد ذكر صاحب المنجد ان الفاو : هو المضيق في الوادي والموضع الأملس وأنها من نواحي العراق .. ولقد كتب في أحد ميادينها قصائد شعرية ورأيت هذا البيت :

الفاو غالية بالنصر زاهية   وبالرجال جنود الحق تفتخر

ولقد أوحت إلى زيارتها وما شاهدته في رحابها بالأبيات التالية أجتزىء منها ما يلي :

من بصرة المجد نحو الفاو مقصدنا   يوم الخميس وكل فيه جذلان
هذي هي الفاو في أزهى مناظرها   كأنها في عراق العز بستان
قد حرروها من الأعداء باسلة   وزال عن أرضها ذل وطغيان
وعودة الفاو بالتحرير ملحمة   جيش تكلله بالنصر فرسان

ثم رجعنا الى البصرة وودعنا أبناءها الذين احتفوا بنا وأنسنا بصحبتهم فيها .. وسارت السيارات فيممنا البصرة وبلغناها في الثالثة ظهراً .. وفي المساء كان الحفل الختامي لجلسات الندوة وانتهت فعاليات الندوة والاجتماعات في الساعة التاسعة مساء وهكذا أمضينا أياما جميلة في ربوع مدينة البصرة .. حيث لبثنا من يوم الثلاثاء إلى صبيحة يوم الجمعة في حفاوة إخوان كرام وعلماء أجلاء وسرور بزيارة مدينة العلم والتي اشتهرت بسوق المربد .. حيث كان سمة

للبصرة ، ولعب دوراً فكرياً وظلت ذكراه قائمة ترمز إلى شهرة المدينة في عالم الأدب والشعر .. حيث كان مركزاً التقت فيه البادية بجميع ما فيها من موروثات حضارية وفصاحة لغوية وأصالة في القيم والتقاليد .. وكان سوقا للعطاء الفكري وقد سألت الاخوة عن موقعه وحاله .. فذكر لي بأنه بمرور الزمن تحول إلى محلة كبيرة مشهورة كانت تسمى بمحلة المربد وقد وصفه ياقوت الحموى بأن هناك شارعًا من أجمل شوارع البصرة وسمي أيضا بشارع المربد .. ولقد أعيد لهذا السوق اعتباره في السنوات الأخيرة فاصبح يقام فيه كل عام مهرجان المربد ..

وفي صباح يوم الجمعة ركبنا الطائرة نحو بغداد وكانت المسافة زهاء ساعة ونصف وكانت معي في الطائرة بعض الكتب فكانت خير زاد للمسافر ولما وقفت بنا الطائرة في مطار بغداد كان في استقبالنا الأمين العام المساعد لاتحاد المؤرخين العرب والذي رحب بنا وتوجهنا صوب فندق المنصور حيث دعينا لزيارة مركز التوثيق وحضور ندوة تاريخية بعنوان « مواجهة الدس الشعوبي » وقد دعي لها أكثر من أربعمائة مؤرخ ومفكر من أنحاء العالم العربي وقد حضر عدد من أساتذة الجامعات السعودية وفي مقدمتهم الأستاذ الدكتور عبد الله الشبل وكيل جامعة الامام محمد بن سعود والأمين العام المساعد لإتحاد المؤرخين العرب والأستاذ الدكتور عبد الله العثيمين الأستاذ في جامعة الملك سعود والأستاذ الدكتور محمد الشعفي والدكتور عبدالعزيز الشبل وغيرهم وقد ضمت الندوة نخبة من علماء التاريخ في الوطن العربي ودعي لها بعض المستشرقين وكان لقاء حافلاً بالمناقشات العلمية والتاريخية والحضارة الإسلامية المجيدة .

وفي بغداد قمت بزيارات لمراكز الثقافة والمتاحف والوثائق والسفارة السعودية ومكتب الملحق الثقافي السعودي ومكتب إتحاد المؤرخين العرب ومركز التوثيق الإعلامي وسور بغداد وأبوابه والمدرسة المرجانية وسوق الشورجة ومسجد الإمام ابي حنيفة ومسجد الخلفاء والمتحف العراقي حيث مشاهدة آثار البابليين والأشوريين والسومريين والآثار الإسلامية وما يحفل به

من أمجاد هذه الديار التاريخية وجامعة بغداد والمدرسة المستنصرية التي بناها المستنصر بالله حوالي سنة ستمائة وثلاثين ومجموعة من آثار المدينة ، ومكتباتها والمعالم الحضارية .. ثم ذهبت بصحبة أخي الأستاذ حمد الركبان الملحق الثقافي السعودي في العراق ورب الدار أدرى بما فيها كما يقال وتجولنا في المدينة وزرنا دكاكين الوراقين والأسواق القديمة كسوق الصفافير وسوق البزازين وقد شط بي الخيال حيث تذكرت ماضيها المجيد وتاريخها العريق وأين مجالس اولئك الخلفاء والعلماء والفقهاء والشعراء وأين الكرخ والرصافة والجسر ودجلة والفرات فقد دوى ذكرها في المشرق والمغرب وأين المنصور والرشيد والمأمون والمعتصم و البويهيون والسلاجقة وجيوش التتار مدمرة مخربة .. هل هذه بغداد التاريخ والمجد ومركز الخلافة والمعرفة والعلماء وكانت تسمى مدينة المنصور ومدينة السلام ومن أسمائها الزوراء وقد بناها المنصور الخليفة الثاني للدولة العباسية سنة ١٤٥ هـ ، و انتقلت إليها الدولة سنة ١٤٨ هـ ومن يقرأ تاريخ الخطيب البغدادي سيجد الأخبار والأيام والتاريخ والشعر ولقد قيل الصناعة في البصرة والفصاحة بالكوفة والخير في بغداد .. ولقد أفاض الأدباء والشعراء في مدح بغداد وذكر محاسنها وكان مجال القول لهم ذا سعة ويروى عن الشاعرابن زريق قوله :

سافرت أبغي لبغداد وسكانها مثلا قد اخترت شيئاً دونه اليأس
هيهات بغدادٍ الدنيا بأجمعها عندي وسكان بغدادٍ هم الناس

ولقد حن إليها الشاعرابن الرومي قائلاً :

بلد صحبت به الشبيبة والصبا ولبست ثوب العز وهو جديد ـد
وإذا تمثل في الضمير رأيته وعليه أغصان الشباب تميد ـد

وبعد تمضية يوم كامل في أرجاء المدينة عدت في العشي إلى الفندق حيث قضيت تلك الليلة هائما في ذكريات التاريخ والشعر والأدب والماضي السحيق

وفي الصباح تهيأنا لجولة خارج بغداد حيث زرنا بعض المدن العراقية ذات الذكر التاريخي كبابل وهي من المدن القديمة ومن ذوات العجائب السبع . حيث رأينا بوابة عشتار وأسد بابل ونموذجا مصغرا لتلك المدينة التاريخية وغدونا نجول بين أرجائها ومعالمها وتذكرنا ما مرت به من دهور وقرون وأيام وحضارات كما زرنا « سامراء » ذات التاريخ والمجد العريض فتجولنا بين أطلالها وأسوارها وجوامعها ورددت قول الشاعر العربي :

صفت لبني العباس أحواض عزهم   زمانا وعادت بعد مخلبة الشرب
لقد ملكوا ملكاً بكت أخرياته   بدمع على المستعصم الشهم منصب

وقول الشاعر :
قوض الدهر بالخراب عمادي   ورمتني يداه بالأنكاد
ضعضع الدهر من بنائي أركا   ناً شداداً طالت على الأطواد
اقفرت سوقها وقد نعى العالـ   ـم فلاحت تجر ثوب الحداد

وتركنا سامراء مواصلين السير حيث عدنا إلى بغداد حيث زرنا بعض الأحياء كحي الكاظمية الواقع غربي دجلة وبها مسجد الإمام الكاظم وحي الأعظمية والمنصور وغيرها من الأحياء إذ غدونا نتجول في ربوعها ونتذكر أيامها وتاريخها وعلى جسر دجلة تذكرت قصيدة علي بن الجهم تلك القصيدة الرصافية التي فتن الأدباء بها الى يومنا هذا وبمطلعها الجميل ونسجت حولها القصص والروايات :

عيون المها بين الرصافة والجسر   جلبن الهوى من حيث أدرى ولا أدرى
وهي تزيد على أربعين بيتاً وقد حفظناها صغارا .
ومررت بالكرخ فتذكرت قول الشاعر :
سقى الله باب الكرخ من متنزه   إلى قصر وضاح فبركة زلزل
منازل لو أن امرأ القيس حلها   لأقصر عن ذكر الدخول وحومل

وقال ابن زريق :

استودع الله في بغداد لي قمراً   بالكرخ من فلك الأزرار مطلعه

وخلال التجوال في أرجاء بغداد سألت عن قصور الخلفاء التي ذكرها المؤرخون والشعراء كقصر الخلد الذي بناه المنصور وقصر القوارير وهو قصر زبيدة بنت جعفر وقصر التاج اسم لدار مشهورة من دور الخلافة في بغداد والقصر الجعفري الذي بناه جعفر بن يحيى البرمكي وقصر الثريا الذي بناه الخليفة المعتضد بالله والذي وصفه ابن المعتز في قصيدته :

حلت الثريا خير دار ومنزل   فلا زال معموراً وبورك من قصر

وعلمت أنه قد ذهب أثرها وانطمس بنيانها ولم يبق لها ذكر الا في أسفار التواريخ وكتب البلدان.

ومررنا بنهر دجلة فقلت لصاحبي دعنا نملأ العين من مباهجه فقد حفظنا من الأشعار فيه الشيء الكثير..

ولنرى دجلة الذي فاض بالخير   عليها وماج بالإيناس

وقول الآخر :

ودجلة يسرى والنخيل مهوم   وللسحر في اعطافهن نواسم

وما أكثر القصائد التي قيلت في بغداد ودور العلم فيها قديمًا وحديثًا فقد قال فيها شوقي في قصيدته نهج البردة يصف بغداد وحافظ ابراهيم في قصيدته البليغة :

سلوا بغداد والإسلام دين   أكان لها على الدنيا قرين

وعلى الجارم إذ يقول في قصيدته الطويلة المشهورة :

بغداد يا بلد الرشيد ومنارة المجد التليد
بغداد يا وطن الأديب وأيكة الشعر الفريد

وغيرهم من الشعراء العرب فضلاً عن الشعراء من أبنائها وهم كثير كالرصافي والزهاوي ومحمد بهجة الأثري وغيرهم من فحول الشعراء .

وبعد فإن ذكريات التاريخ تترى أمام المرء وهو يتجول في تلك الأماكن وسرنا بين تلك الأحياء حتى بلغنا الفندق ولشد ما برّحت الذكريات قلب المرء حينما يستعرض التاريخ والأمجاد العربية الإسلامية .

وأصبحنا يوم الأحد نتجهز للسفر إلى الكوفة والنجف وكربلاء وعبرنا دجلة خارجين من بغداد والساعة التاسعة من الصباح وسرنا نحو الجنوب فمررنا بعشرات القرى والبلدان منها المحمودية واللطيفية والإسكندرية ثم توقفنا قليلا في المسيب وعبرنا الفرات وسرنا حتى وصلنا كربلاء ثم النجف حتى بلغنا الكوفة مهد علوم العربية وملتقى العلم والعلماء .

فقد زخرت بالعلماء والشعراء والأدباء والخطباء وكان لها دور عظيم وشأن كبير ومدرسة نحوية مشهورة ، وزرنا جامعها الكبير وسرحنا الطرف في جنباته وفيما حوله من دور وآثار ، وأخذ مرافقنا يشرح لنا تاريخه وقصر الإمارة ودور العلماء والمعالم الأثرية الباقيةَ ولكم رددت قول الشاعر العربي :

يا دار غيرك البلى ومحاك يا ليت شعري ما الذي أبلاكِ

وتوجهنا إلى الحلة بلد الشاعر صفي الدين الحلي وأنشد الأخوة العراقيون بعض قصائده ثم رجعنا إلى بغداد وبلغناها والساعة التاسعة من المساء .

وهكذا بعد تمضية أيام ممتعة مفيدة في ربوع العراق الحافل بالآثار والمعالم والأمجاد العربية الإسلامية ودعنا تلك الربوع وقلت حبذا لو طال بنا المقام .